قصة المخطوط النادر

الدكتور حسين علي محفوظ

أطلعت في (دار الكتب الرضوية) بمدينة مشهد مركز خراسان في ايران ، أوائل خريف سنة ١٩٥٧ على نسخة خطية قديمة نادرة ، لعلها وحيدة ؛ كان خازن المخطوطات الفاضل يظن انها كتاب « اخبار مكة » للأزرقي . وقد استطلع رأيي فيها ؛ لانه لم يطلع عليه .

فأعجبت بالكتاب ؛ ونبهت طائفة من افاضل الباحثين الى الاستفادة منه ، وصورته وأعلنت نبأ عثوري عليه ، وظللت مستمرا على تصفحه وتحقيقه .

رقم هذا المخطوط (٥٧٥١/ تاريخ) وعدة أوراقه ١١٦ ؛ طول كل ورقة ٢٣ سنتيمترا ، في عرض ١٨ سم . وفي كل صفحة ١٩ سطرا ، مكتوبة بخط نسخي قديم .

وهو ناقص من أوله بضع أوراق ، والمظنون أنه تام الآخر .

والنسخة غير مؤرخة ، ولكن يخيل الي انها اكتتبت في أوائل القرن السادس الهجري تقريبا ؛ أي أوائل القرن الثاني عشر الميلادي . وعلى ظهرها ختم مؤرخ في ٩٥٧هـ/١٥٥٠م . وكانت ملك بعضهم في القرن التاسع ؛ فقد ملكتها يده سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٤م .

اهتممت منذ سبع سنين بهذا المخطوط القيم ، وفضلته على كثير من النوادر ، التي كنت أطلعت عليها — حينئذ — في ايران ، ومنها كتب ورسائل بخط حنين بن اسحاق ؛ المتوفى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م ، ومنظومة في صور الكواكب لابن (ابن الصوفي) المعروف ؛ المتوفى سنة ٣٧٦هـ/٩٨٦م .

ثم أتيح لي الاطلاع على أوراق بخط شيخنا العلامة الفهرسي « الببلغرافي » الكبير (اقابزرگ الطهراني) نزيل النجف ؛ مصنف كتاب (الذريعة الى تصانيف الشيعة) دون فيها أسماء بعض الكتب كمسودة لكتاب الذريعة المذكور . ومنها كتاب (منازل مكة) .

وكان الشيخ اقابزرگ الطهراني عثر على هذا الاسم ، في كتاب (المنقذ من التقليد والمرشد الى التوحيد) المعروف بـ (التعليق العراقي) ؛ تاليف سديد الدين أبي الثناء محمود بن علي بن الحسن الرازي الحمصي ،

المتوفى في حدود سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م ؛ الذي فرغ من تأليفه سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ؛ فقد نقل الحمصي من كتاب (غرر الأدلة) تأليف أبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي المتوفى سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤ ؛ انه قال : « قرأت بخط ابن الكوفي في كتاب منازل مكة » وهذه الكلمة ، هي التي دعت (اقابزرگ) ان يثبت اسم كتاب منازل مكة ، وينسبه الى ابن الكوفي ، في كتابه (الذريعة) ـ فقلت : ربما كان هذا المخطوط « منازل مكة » ولعل مؤلفه « ابن الكوفي » .

وقد أشرت الى ذلك في فهرست تاليفاتي المطبوع على ظهر كتابي «تاريخ الشيعة المنشور سنة ١٩٥٧ » ووضعت تجاه اسم الكتاب والمؤلف حرف (ظ) علامة الظن .

وقد حضني هذا على تتبع ترجمة ابن الكوفي ، والفت رسالة مفصلة في سيرته ظهرت في سلسلة مطبوعات كلية الآداب ، بجامعة بغداد سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م . كما دعوت الى احياء (ذكرى ابن الكوفي) الألفية ، وأعلنا مهرجانه الألفي ، في كلية الآداب بجامعة بغداد ، في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩٦٠ ، وعرفت به في راديو بغداد ؛ عشية ٢٢ حزيران سنة ١٩٦٠ ، ووصفت النسخة الخطية في مؤتمر المستشرقين الخامس والعشرين بموسكو في صيف العام المذكور ، وفي (الندوة الثقافية) بتلفزيون بغداد عشية ٣ تشرين الأول سنة ١٩٦٤ ، وعرفت بابن الكوفي ـ أيضا ـ في العدد ال ١٤ و١٥ من مجلة بغداد .

أما ابن الكوفي ـ وهو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد بن الزبير ، الأسدي ، القرشي ؛ المعروف بابن الكوفي ، وابن الزبير ؛ فقد ولد بمدينة الكوفة سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م ، واستوطن بغداد ، وتوفى بها سنة ٣٤٨هـ/٩٦٠م ؛ فاكتفي ـ الآن ـ بالاشارة الى أني أكاد اعد هذا النابغة العراقي من أوائل المحققين العرب ؛ الذين اتبعوا الطريقة العلمية الصحيحة في التأليف والكتابة ، والنقل والجمع .

وكان خطه معروفا بالصحة والجودة ، والاتقان والضبط . وكانت تاليفاته غاية في الدقة . وقد رتب خزانته على العلوم ترتيبا خاصا بارعا ، مع تعيين أمكنتها . كما انه سبقنا الى استعمال البطاقات والجزازات ـ وهي الرقاع والوريقات التي تعلق فيها الفوائد ؛ التي تسميها اليوم (فيش Fiche) ـ في التأليف والجمع .

وقد بيعت رقاعه ـ بعد وفاته ـ كل بطاقة بدرهم . والدرهم يساوي ٢١٥ فلسا عراقيا ؛ بحسب عملتنا ، وفق تكسير سعر الدينار الذهب العراقي القديم ، في زمن ابن الكوفي ، على عشرة دراهم .

وقد اعتمد ابن النديم على مباحث ابن الكوفي . ولقد أحصيت مآخذ ابن النديم في كتابه (الفهرست) من خط ابن الكوفي ؛ فوجدته نقل فصولا طوالا في ٢٩ موضعا من الكتاب ، ربما اوشكت ان تبلغ مقدار عشر الفهرست تقريبا .

ومما يزيد أهمية ابن الكوفي ، انه كان واسطة نقل التراث العلمي ، الذي تم طوال القرون الأربعة الأولى من تاريخ الثقافة الاسلامية • وقد حسبت ما وصلت الينا أسماؤه ، مما رواه عنه واحد من تلاميذه فقط ، وهو ابو عبدالله احمد بن عبدون المعروف ب (ابن الحاشر) ، المتوفى سنة ٤٢٣هـ/١٠٣٢م فوجدته ٦٠٠ كتاب في اللغة ، والأدب ، والخطب ، والتاريخ ، والأنساب ، والتفسير ، والفقه ، والشعر ، وسائر العلوم الاسلامية • فقد أوصل الينا ٤٠٠ أصل من كتب الحديث ، كما أوصل الينا آثار ١٩ عالما من رجال الفكر الاسلامي ، والثقافة الفقهية •

أما هذا الكتاب ، الذي أتكلم عليه ؛ فأكاد لا أشك ان اسمه « منازل مكة » فان مؤلفه صنفه في صفة منازل مكة • وقد صرح بالاسم عدة مرات • ولقد وصف الطريق غاية في الدقة من الكوفة الى مكة ، ثم طريق المدينة • ثم ذكر مسجد النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — الذي بناه حين قدم من

وغير ما [illegible] الذي [illegible] الحجه وما اتصل [illegible] أرضها
عروض يمامة و تهامة [illegible] وصار [illegible] ذلك الجبل [illegible]
[illegible] الحجاز المحدرة الى أكناف العراق و السماوة وما [illegible]
[illegible] وصار الجبل [illegible] وهو الجزء ما [illegible] في شرقيه
من الحجاز الى [illegible] ناحية فيد الى المدينة حجازا والعرب تسميه
نجدا وجلسا وحجازا فالعرب تسميه نجدا وجلسا وحجازا والجبل [illegible]
ذلك [illegible] وصار [illegible] اليمامة والبحرين وما والاهما العروض [illegible]
[illegible] وعروض [illegible] الحجاز و [illegible]
[illegible] وما دار بها الى صنعاء وما والاها [illegible] بلاد
الى حضرموت والشحر وعمان [illegible]
[illegible] السراة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] العراق [illegible]
[illegible] الموصل الى [illegible]
[illegible] أرض العرب [illegible]

مكة ، والمسجد الذي بناه لما قدم من خيبر . وقد وصف مسجده في المدينة ، وبين زيادات الخلفاء ، وذكر القبر ، واختلاف الناس فيه ، واشار الى مساحته .

وذكر ــ ايضا ــ الكتابة التي حول المسجد ، وزينته ، وتوسيعه أيام الخلفاء والولاة . ثم ذكر حد جدار النبي ، ومساجده في المدينة ، ومساحتها، وذكر المنبر .

ثم بين حد المدينة ، وجبالها ، ومياهها ، وما حولها من الجبال ، واقسامها ، وقبور الشهداء بأحد وأسماءهم .

ثم ذكر طريق بدر ، والطريق بين المدينة ومكة ، ووصف المنازل الى مكة ، وذكر آداب الحج .

وذكر ــ من بعد ــ مكة ، وأسماءها ، وسبب تسميتها . والمسجد الحرام ، والصفا ، والمروة ، والكعبة ، وبنيانها ، وزمزم ، ومساحة المسجد الحرام والكعبة .

وذكر الطريق الى منى ، والمشاعر ، ومسافاتها ، والطريق القديمة بين خيبر والمدينة ، ومسافاتها ، وطريق سلمان .

وأفرد فصلا جغرافيا لوصف الحجاز ، وجزيرة العرب ، ونجد ، وتهامة . ثم اثبت منظومة طويلة في ذكر المنازل على طريق مكة لأحمد بن عمرو ــ الذي كان مع أم جعفر سنة حجها ، ووصف سفرها من بغداد الى الكوفة . ثم الى مكة ، ثم الخروج في الطريق الأول الى مدينة السلام بغداد . ومنظومة أخرى في وصف الطريق ــ أيضا ــ ومنظومة ثالثة ، انشدها أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن الضحاك بن عمر ، الجماني الكوفي .

ومنظومة رابعة للمؤلف في وصف طريق العودة الى الكوفة .

ثم ذكر طريق البصرة ومياهه ، والطريق التي يسلكها الناس في عصره ، وطريق البحرين .

واثبتت قصيدة وهب بن جرير بن حازم الجهضمي في الطريق والمناسك.

وأورد أخيرا الطريق الى مكة من اليمن ، وتهامة ، وحضرموت ، وعصر ، والساحل ، والشام ، والطائف ، وجدة .

وهو يروي كل ما يأتي به ، عن الرواة الثقات باسنادهم . ويصف الأمكنة والمنازل ، ومن ينزلها من القبائل ، وأسماءها ، وأسباب تسميتها . ويعين مسافاتها ، وبعدها عن البقاع المحيطة بها ، وما فيها من قصور ، ومساجد ، وبرك ، وأحواض ، ومشارب ، ومصاني ، ومسايل ، ومجاري ، وآبار .

وكذلك الهضاب ، والعقبات ، والرمال ، والرياض ، والبساتين ، والحدائق . ويعين أنواع الأرضين ، وارتفاعها ، والآبار المطمومة ، والمعطلة ، والعذبة ، والمالحة . ولم ينس اثبات ما قيل في ذلك كله من الشعر ، وما ورد فيه من الأخبار .

فالكتاب ـ اذن ـ مجموع أدبي ، تاريخي ، نسبي ، جغرافي ، طبغرافي ، نفهي • وقد روى المؤلف في كتابه هذا عن جماعة زادوا على مائة من العلماء والأخباريين ، استطعت ان أعرف حياة نيف وأربعين منهم ، هم :

أبو اسحاق الكاتب ، المتوفى سنة ٢٥٤هـ
أبو حذافة السهمي ، المتوفى سنة ٢٥٩هـ
أبو جعفر الياس ، المتوفى سنة ٢٥٨هـ
أبو عمرو التميمي « العطاردي » ، المتوفى سنة ٢٧٢هـ
أبو سعيد القطان البصري ، المتوفى سنة ٢٥٨هـ
أبو صالح الحنظلي المروزي ، المتوفى سنة ٢٥٧هـ
أبو بكر الرمادي ، المتوفى سنة ٢٦٥هـ
أبو جعفر الكرابيسي ، المتوفى سنة ٢٥٩هـ
القطان المخرمي ، المتوفى سنة ٢٥٦هـ
أبو الفضل الطيالسي ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ
ابن شاكر ؛ الصائغ ، المتوفى سنة ٢٧٩هـ
أبو محمد التميمي ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ
أبو علي الزعفراني ، المتوفى سنة ٢٦٠هـ
أبو محمد الزيات ، المتوفى سنة ٣٢٩هـ
أبو علي البزاز ، المتوفى سنة ٢٧٤هـ
الزبير بن بكار ، المتوفى سنة ٢٥٦هـ
أبو عثمان الثقفي البزاز ، المتوفى سنة ٢٦٥هـ
سعيد بن أحمد بن عثمان • كان حيا سنة ٢٦٦هـ
أبو العباس العبدي الدورقي ، المتوفى سنة ٢٧٦هـ
أبو شعيب الأموي الحراني المؤدب ، المتوفى سنة ٢٩٥هـ
أبو محمد الوراق ، المتوفى سنة ٢٧٤هـ
أبو محمد الكاتب الدينوري ، المتوفى سنة ٢٧٠هـ
أبو البختري العنبري ، المتوفى سنة ٢٧٠هـ
أبو الحسن التميمي القنطري ، المتوفى سنة ٢٧٢
أبو الحسن السمسار الطوسي ، المتوفى سنة ٢٥٣هـ
أبو الحسن الطوسي ، المتوفى سنة ٢٥٣
ابو العباس الأنصاري الاهوازي ، المتوفى سنة ٢٨٨هـ
أبو العباس الأعرج ، المتوفى سنة ٢٥٥هـ
أبو عبدالله الواسطي الحساني ، المتوفى سنة ٢٥٨هـ
أبو عبدالله الكاتب السمري ، المتوفى سنة ٢٧٧هـ
أبو عبدالله الأعرج المروزي ، المتوفى سنة ٢٨١هـ
أبو يحيى العطار الضرير ، المتوفى سنة ٢٦١هـ
ابو جعفر المخرمي ، المتوفى سنة ٢٥٤هـ

أبو جعفر الصيرفي ، المتوفى سنة ٢٦٥هـ
أبو بكر ، ابن زنجويه ؛ المتوفى سنة ٢٥٧هـ
أبو عبدالله العلوي ، المتوفى سنة ٢٨٧هـ
أبو بكر ، الصائغ المخرمي ، المتوفى سنة ٣٢١هـ
أو أبو جعفر الصائغ ، المتوفى سنة ٢٩٧هـ

وهؤلاء كلهم ممن كان يعيش في بغداد في أواسط القرن الثالث ، أواخره ، وأوائل القرن الرابع الهجري (٩ و١٠م) ، وهو عصر ابن الكوفي ٠

أما مؤلف الكتاب ؛ فأكاد أظن أنه عراقي - سواء كان ابن الكوفي أم لم يكنه - لأنه خص العراق بالجزء الأكبر من الكتاب ، ووصف طريق العراق مفصلا ، وقد أوجز في الكلام على الطرق الأخرى ، واكتفى أحيانا بالأسماء ٠

كما نستطيع أن نقول : انه عاش في القرنين الثالث والرابع (٩و١٠م) لأنه روى عن رجال من أهل ذينك القرنين ٠ وربما صح أن نقول أيضا انه كوفي ، لانه اهتم بالكوفة وخصها بكثير من العناية والكلام في قصيدته التي وصف بها الطريق ، وكانت آخر مراحل سفره ، وهو بغدادي المنزل (ظ) لأنه روى عن علماء كانوا جميعا ببغداد ٠

ولا أدري كيف دلت كلمتي - التي تلي هذه الأسطر - بعض الأفاضل على « افتراض المؤلف ابن الكوفي ، وترجيح نسبة المخطوط اليه ٠ فقد نسب ذلك الي - مثلا - بلدينا الأخ الشيخ الجليل محمد حسن آل ياسين (أطال الله بقاءه وأدام تأييده) ٠

لقد قلت في ص ٢٠ ع ٣ من مجلة كلية الآداب : « ٠٠ وظننتها [أي النسخة الخطية] (منازل مكة) ولكن نسبتها الى ابن الكوفي أمر ما أزال اتظناه ٠ فالرجل كثير الاستنساخ ، والنقل من منتسخاته شيء معروف ٠

ومهما يكن من شيء ؛ فان مصنف منازل مكة هذا ؟ رجل كوفي ، قريب من عهد ابن الكوفي - ان لا يكنه - فأكثر الرواة الذين روى عنهم من طبقة مشايخه ، وممن يوافق زمانهم عصره » ٠

وأنا أشكر لمجلة الاقلام استطلاع رأيي ، ولا أنسى الثناء على الشيخ الفاضل الذي رأى أن ينعم علي فيذكرني - استطرادا - في مقاله النفيس ؛ وهو عجاب من أهل العصر فقد تعودت أن يغمطني حقي كثير ممن نقل عني ، واستفاد من آثاري ٠ واليه (حفظه الله) يعود فضل دلالتي على مقالة الدكتور صالح أحمد العلي - في مجلة المجمع العلمي العراقي - التي هدته الي اضافة الكتاب الى ابي عبدالله محمد بن أحمد الأسدي وهو أمر أوسعته بحثا وتتبعا في مقالتي « أثر جغرافي طبغرافي قديم في صفة بلاد العرب لمؤلف عراقي قبل عشرة قرون ، في العدد القابل من مجلة كلية الآداب - ان شاء الله - » ٠